

الطيران بين أسلحة الحرب

الملازم الأول حسين ذو الفقار صبرى

(تمة ما نشر في العدد السابق)

سنجد إذا نظرنا في أمر « النافلات » أن ما ذكرناه عن القاذفات ينطبق عليها تماماً ، إذ أنهما نوعان متماثلان ، لا يختلفان في شيء اللهم إلا في تصنيف الأحوال ، وليس في تقدير الأحجام والأثقال ؛ هذه ارتحلت بالقنابل والمقذوفات ، وتلك نقلت الرجال والمتاد أو ربما نقلت جنود الهابطات

أما « المنقضات » ، أدوات التحطيم التكتيكي^(١) ، فهي طائرات تعمل ضد أهداف ضاقت مساحتها وإن عظمت أهميتها كدافع الميدان ، أو معادل المقاومة ، أهداف لا تميز إلا من ارتفاع بسيط ، إصابتها عسيرة إلا إذا هوت عليها الطائرات كالعقبان . فهذه إذن طائرات مقدرتها على الاحتمال عظيمة : هياكلها متينة ، تغلب ضغوطاً نشأت عن حركات اعتدال عنيفة إثر سقطات هوائية ، وطائرات كهذه يجب أن يكون ثقلها محدوداً حتى لا تؤثر جاذبية الأرض عليها تأثيراً كبيراً ، فياجبذا لو تمكنا من اجتياز ما تبقى من ثقلها هذا المحدود . لحساب محرك قوى يساعدها على الانطلاق سريعاً . ولكن هل ترانا نسينا أنه يجب عليه اقتسام ذلك الثقل المتناقص مع قنابل ضخمة لولائها لما أنشئت تلك الطائرات ولا كان لها وجود ؟ فلتنقع « المنقضات » إذن بمحرك ضعيف يتركها فريسة سهلة لطائرات الأعداء ، إلا إذا أحطناها بالمقاتلات تحرسها وتحمي ظهرها ، فتصينها ولو قليلاً على القيام بواجبها وتنفيذ مآربها

تلك هي أنواع الطائرات الرئيسية ، وبإليها كانت مقسمة ذلك التقسيم البسيط ! إن واجبات الطيران أصبحت عديدة متفرقة ، لا تؤديها على الوجه الصحيح إلا أنواع من الطائرات تعددت بتعدددها ، وتخصص كل نوع منها كل التخصص ، كل منها يخالف الآخر في خواصه بل يتناقضه أحياناً وإن تضافوا جميعاً نحو الغاية وتكاتفوا على الهدف

وتتعدد أنواع الطائرات هنا هو بالثلث للسبب الرئيسي اللذى

وقف في سبيل سيطرة الطيران سيطرة تامة على ميادين القتال ؛ فإن السلاح الذى كتب له التحكم والسيطرة يجب أن يكون سلاحاً مرناً متعدد النواحي لا الأنواع ، يقابل كل حالة طارئة بأسلوب جديد يناسبها ، أو يحل مبتدع يعالجها . وما الحرب إلا ظاهرة اجنبية لبشر يعيشون على وجه الأرض ، ولذا سيظل سلاحها الأساسى جيوشاً تعمل مثلهم على وجه الأرض

بعد الحرب الماضية بقليل ، غمرنا الجنرال الإيطالى « دوهيه » بمقالات عديدة ومؤلفات كثيرة ما قرأها قارئاً إلا انقاد لأرائه وسلم بصحتها . فوثق من أن حروب المستقبل القريب هي حروب الفناء ، حين تبسط الطائرات أجنحتها من شرق السماء إلى غربها ، وتنتفض على البلاد تمحوها ، وعلى معالمها تدرسها

ولم يكتف « دوهيه » بالوصف والتصوير ، بل قدم برنامجاً مفصلاً شاملاً ، لم يترك فيه صغيرة إلا ذكرها ، ولم يمتعه الإيمان الطويل فى الروايات والأركان ، من الاعتماد بين الحين والحين ليرنو إلى هيكل بنائه كاملاً ، فيضع قواعده ، ويرسم خطوطه ، بحيث تتسق بداخله التفاصيل ، وتتماسك لتكون وحدة لا تنقسم

ولكن ذاك البرنامج عسير التنفيذ إلا على دولة ملكت من الطائرات عدداً عديداً ، وكان لها منها وفرة وفيرة . فيقوم الإيطالى يدعو بعدم « تبذير » الميزانيات على الجيوش والأساطيل ، فهي فى نظره أشياء لا نفع فيها ، ويتشبث بوجود إنفاق أموال الدولة كلها فى سبيل بناء الطائرات ، بل يذهب إلى أن يخص منها بذكر القاذفات ، ويهمل المقاتلات وطائرات الاستطلاع . ويجب علينا هنا الانتباه إلى إحساس « دوهيه » العميق : باستحالة ضمان السيطرة للطيران إلا إذا تمكنا من تركيز قوتنا فى نوع واحد من الطائرات ، ظنه قادراً على مجابهة جميع الطوارىء . وهذه لم تكن ماوارى بمعنى الكلمة ، بل تيارات مرسومة يديرها المهاجم كيف يشاء ، (وهيئات أن تنضم فى هذا العالم للفاشيات) ، فهو إذن مشروع جامد تنقصه المرونة اللازمة لكل أداة يريد بها الإنسان لمجابهة مشاكل الكفاح فى سبيل الحياة ، تلك المشاكل التى لا تبرز بحسمة كل النجوم إلا أثناء الحروب التى هى أشد مظاهرها كفاح الحياة تركيزاً وأعنفها صموداً

ومع ذلك فقد ارتكن مشروع «دوهيه» هذا على كثير من الأسس الواهية^(١)

قسم «دوهيه» مراحل الهجوم إلى ثلاث ؛ أولاها : مرحلة تحطيم مطارات الأعداء وتدمير قوتهم الجوية ، فإيكاد يجهز عليها حتى ينتقل إلى مناطق الصناعة يدك أركانها ويقوض أساسها ؛ ثم يلتفت أخيراً إلى مساكن المدنيين يصدع أجنادها ويهدم سقوفها . هي «الحرب الكلية» لا تبقى على شيء ولا تذر ؛ هي حرب سلاحها القاذفات تحمل أسباب الهلاك والفناء على دفعات ثلاث ، دفعات متعاقبة متلاحقة ؛ السابقة منها تمهد السبيل لللاحقة ، واللاحقة منها تبارى السابقة في إفتنان وسائل الدمار ، أولاها قذائفها ثقيلة ضخمة ، والأخيرة سلاحها أرق من النسيم ، وأنتك من ألف قنبلة تدافعت نحو الهدف . هذه هي جرائم أمراض وبائية حشرت في أنابيب صغيرة ، ولكنها سلاح يعجز عن إلحاق الضرر الشامل إلا إذا سبقتها حالة عم فيها الفزع ، واختلط خلالها الحابل بالنابل ، وانقلب أثناءها العالي على السافل ؛ حالة شُلت فيها وسائل الوقاية ، وانعدمت أثناءها أسباب العلاج . حالة تخلفها القاذفات بإشعال الحرائق الكبيرة تستمر وتمتد حتى لا يعود إنسان يفكر في رقيق ، ولا أخ في شقيق ، ولا أم في وليد . ولكن هل يسمننا إشعال تلك الحرائق ما دام هناك على الأرض أفراد لها مترقبون . وبكامل الوسائل مستعدون ؟ لا مناص إذن من إقصائهم عن مراكزهم أو تحويل رقابتهم بقنابل قاصفة شديدة الانفجار ، تهز أعصابهم إن لم تنثر أشلاءهم .

تلك هي المراحل الثلاث ، وهي كما ترى مرتبطة ببعضها ، متسلسلة الترتيب ، مهددة لأخيرتها التي هي أصدقها إصابة ، وأمضاها نتيجة

طبق الألمان نظريات «دوهيه» على عمليات بولندا فنجحت نجاحاً لا بأس به : قَعدَ البولنديون سلاحهم الجوي إثر هجوم

(١) من أم أخطاء «دوهيه» هو اعتياده أكبر الاعتماد على افتراض واه ، وهو اعتياده أن المقاتلات لن يتمكنها اعتراض القاذفات في طريقها إلى الأهداف ، حيث الفضاء فيج منع ، وعملية البحث شاقة عسيرة ، ولكي أنباء كيف لم يفترض أن الإنسان سيجد تلك الحال حلا ومنها مخرباً . بل ربنا وجد حلاً كثيراً ومخارج عديدة ، كما دأب منذ الأزل ؟ فني استصحب على البشر معالجة حال خلقتها بشر من قبلهم ؟ !

خاطف شنته قاذفات الألمان على المطارات ، ووقفت جيوشهم مشلولة حيرى لا تدرى عما يدور حولها شيئاً . كيف لا ؟ وقد فقدت طائراتها وأصبحت كالسارى في ظلام دامس ، يتحسس الطريق فيتمتر ، ويتنسم الاتجاه فيتخبط ! أما المصانع فلم تدمر تدميراً تاماً كما أمل الألمان ؛ وأمام المدن عجز برنامج «دوهيه» عن شق طريقه إلى سبيل التنفيذ والتحقيق . ولا داعي لتذكير القارى أن ألمانيا أحجمت عن استعمال الجرائم الوبائية حرصاً على موقفها إزاء الدول ، وخوفاً من استفزاز الرأي العام

وفي صيف ١٩٤٠ حاول الألمان معاودة تطبيق تلك النظريات على مطارات بريطانيا ففشلوا فشلاً تاماً ، إذ هبت المقاتلات في وجه القاذفات الغيرة تردّها وتقضيها ، حتى فاه تشرشل بكلمته المشهورة في الإشادة بأعمال رجال الطيران البريطاني : «لم يسبق قط في تاريخ الحروب أن علقت فئة قليلة كهذه على أعناق شعب مثلنا ، جموعه زاخرة بالأفراد ، مأجبة بالأعداد ، دُينا كهذا ، قيمته تفوق كل قيمة» ؛ وهكذا أصبح القسم الأول نفسه من برنامج «دوهيه» عسير التحقيق ، إلا في تلك الأحوال الخاصة التي انقضت فيها دول كبرى على دول صغرى ضعيفة لا تملك من تلك المقاتلات كثيراً

أنهار إذن صرح «دوهيه» وهو أحسن ما شيد في سبيل تحقيق سيادة الطيران على ميادين القتال . فدعونا إذن من تخيلات التخيلين ، ولنخضع لما لا يحيد عنه وهو أن الجيوش الزاحفة على الأرض ستظل العامل المسيطر ما عاش الإنسان مثلها على سطح الأرض ، وأن الأساطيل البحرية ستظل أقوى ما يؤثر على نشاط الصناعة والاقتصاد ما شقت السفن التجارية عباب الماء بشحناتها الغذائية أو مواد الصناعة الأولية . أما الطيران فستحتل ولا شك مكاناً تزيد أهميته بمر السنين ، ولكنه سيظل دأماً أبداً السلاح المعاون لا الركن والأساس

أظهر الطيران تفوقه على غيره من وسائل الحرب في شئون الاستطلاع ، فعم استعماله هناك ، وفضل المدفعية في المقدرة على المسارعة بنيران تساعد قوات شقت طريقها للأمام سريعاً ، بواسطة منقصات بنيت لهذا الغرض خصيصاً . ويمكن من التوغل بالقاذفات داخل بلاد الأعداء ، وهذا ما لم يتوصل إليه أحد من قبل ، وقدم المقاتلات تمد من فتك القاذفات ، بل تشتتها